القيم الاجتماعية والتربوية للعمل التطوعي

في

مدارس الكويت: دراسة وصفية لأربعة نماذج

د. علي عاشور الجعفر

قسم المناهج وطرق التدريس
كلية التربية/ جامعة الكويت

القيم الاجتماعية والتربوية للعمل التطوعي في مدارس الكويت:
دراسة وصفية لأربع نماذج

ملخص:

تكمن أهمية الدراسة في أنها تحاول أن تغرس مفهوم العمل التطوعي والخيري الذي يؤدى إلى التراحم والتآزر والتسامح بين أبناء المجتمع، وهي القيم التي يصبح المشاركون في هذه الدراسة من خلالها على وعي بأحداث تاريخهم وواقعهم، وبالأحداث العالمية مشكلين بذلك الوعي جسراً رابطاً بين ما هو محلي وما هو إنساني.

وتبرز الأهمية الأخرى للدراسة في أنها تنطلق من المدرسة كما بدأت في أوائل القرن الماضي رحلة التعمير. من هنا كان البدء بالمدرسة لإبراز العمل التطوعي وفاءً لذلك الجيل الذي قدح شرارة المعرفة لتصبح هذه الجذوة قبساً يستضئ به الجيل الحالي من أجل خير وطنهم وأنفسهم.

وتنطوي عينة الدراسة على أربعة مدارس من التعليم الثانوي العام الحكومي في أربعة مناطق تعليمية واعتمدت الأسلوب النوعي Qualitative. ونظراً لصعوبة تطبيق المعايشة الميدانية على مدارس متعددة، فإن الباحث ارتأى أن يختار للتجربة مدرسة واحدة من كل منطقة تعليمية من التعليم العام الحكومي، بحيث تمثل هذه المدارس خريطة الكويت بتنوعها الجغرافي والديموجرافي.

Social and Educational Values of Volunteer Work at the Schools of Kuwait: A Descriptive Study of Four Models

Abstract:

The importance of the study rests in the fact that it seeks to implant the concept of volunteer and charitable work which leads to compassion, mutual support and tolerance among members of society these are the values through which the participants in this study will become aware of the events of their history and reality as well as global events, hence they assume the awareness a bridge that links what is local with what is human.

The other aspect of the importance of this study is that it is launched from the school, as the march development started of the last century. The starting from the school underlines the importance of volunteer work as an expression of gratitude to that generation which started the light of knowledge which now lights the way of the present generation for the good of their country and their own.

The model of the study consists of four schools in the secondary phase of the government schools in four different regions. The study has adopted a highly qualitative approach.

In view of the difficulty of applying the field experience to several schools, the researcher found it more appropriate to run the experiment in one school in each education region of the government school, thereby covering the different geographic and demographic aspects of Kuwait.

مقدمة

في عام 1911، اجتمعت عقول كويتية لتدرس شأناً وطنياً غيَّر مجرى تاريخ الكويت المعاصر، وبعد حوار مثمر خرج السيد ياسين الطباطبائي والشيخ يوسف بن عيسى القناعي والشيخ ناصر المبارك بمشروع تأسيس أول مدرسة نظامية في الكويت. وقد تلقف الكويتيون فكرة إنشاء هذه المدرسة بحماس شديد، فجمعوا التبرعات اللازمة لإنشائها، وأوقفوا لها الأوقاف لضمان مسيرتها التربوية دونما أية عوائق مالية (الرشيد, د.ت.؛ القناعي, 1954). وكان للنساء حظ طيب في الإسهام بهذا العمل الوطني الكبير، فتبرعت السيدة سبيكة الخالد بالأرض الخاصة بها لتصبح المكان المناسب لإنشاء المدرسة (الشملان, 1985). وتم افتتاح المدرسة المباركية بعد عام من نشوء الفكرة من أموال الفرد الكويتي ومن حر أفكاره، شارك بذلك الغني بالمال، والفقير بالعمل، والمثقف بالتدريس؛ لا فرق في ذلك بين ذكر أو أنثى.

لم يكن هذا التضامن الذي حدث بين الكويتيين لإنشاء أول مؤسسة تعليمية بالشيء المستغرب عليهم. فقد عاشوا حياتهم منذ تأسيس دويلتهم على مبدأ تجلى واضحاً في أمثالهم الشعبية (الرومي, كمال:1984, 2:103-115), وأسسوا "فرجانهم" وبيوتهم على هذا الأساس. فالبيوت التي بناها الكويتيون والتي يلاصق بعضها بعضا تعطي لقاطنيها الشعور بالأمان والحميمية ، وتؤكد مفهوم التماسك بين أفراد المجتمع. ولم يكتفوا بذلك، بل إن الأسرة الواحدة ما كانت لتغادر بيتها بسبب زواج أو أي طارئ بل نجدها باطراد وتنام مستمر مما يجعل مسؤولية التربية للأطفال مسؤولية جماعية يشترك فيها أفراد الأسرة الكبيرة جميعاً (الجعفر, 2004؛ Al-Jafar, 1998). مثل هذا التماسك نجده أيضاً على مستوى المهن التي هي في أغلبها مهن جماعية يتداخل بعضها في بعض ولا غنى لواحدة عن الأخرى. فبناء السفينة التي هي مصدر رئيس للدخل القومي في الكويت يتطلب مهناً متعددة لإنشائها ، مثل الأستاذ والقلاف والحداد والخياط وغيرها. هذا التشابك الذي يفضي إلى التعاون لتبحر سفينة الرزق، يقابله تعاون مماثل على السفينة أثناء الإبحار، ابتداء بصاحب السفينة ومالكها، ومروراً بالنوخذه والغواص، وانتهاءً بالتباب والطباخ والمغني. كلٌّ له دوره الحيوي الذي يتمم بعضه بعضا.

ويروي التاريخ لنا حوادث متعددة تبين معدن الكويتيين في إدارة المشاكل الكبرى، وإنفاقهم النبيل، وتطوعهم للأعمال الخيرية، وذلك قربى إلى الله تعالى و إحساساً حقيقياً منهم بالمسؤولية (الشملان, 1985؛ الرشيد, د.ت). وقد أرخوا لتلك الحوادث في تاريخهم وأشعارهم وحكاياتهم وألعابهم الشعبية لتصبح سيرة عطرة لتاريخ وطنهم (بيت الزكاة, 1998؛ الحاتم, 1980؛ الرشيد, د.ت؛ النوري, 1980؛ النوري, 1988, القناعي, 1954). وحينما شعر الكويتيون بأنهم

مستهدفون من قُوى طامعة، بنوا سوراً يحيط بهم وذلك في شهر رمضان المبارك ليبارك الله في جهودهم، وانتدب كل حيٍّ مسؤولية بناء الجهة الخاصة والمقابلة به. فكان الزمن الذي تم به تشييد السور قياسياً، استخدموا فيه ما يسرته طبيعة أرضهم لهم من مواد البناء ليكون ممزوجاً بعرقهم وحبهم لتراب الأرض (الحاتم, 1980؛ الرشيد, د.ت؛ النوري, 1980). ولقد عادت هذه القيم إلى السطح في المجتمع الكويتي بأجلى صورها حين تعرض لمحنة الغزو العراقي في أغسطس 1990.

إن الغزو العراقي على الكويت جعل منها كويتين: كويت المنفى وكويت الداخل. فالغزو تم في أغسطس وهو شهر السفر بالنسبة لمعظم الكويتيين طلباً للراحة والاستجمام من صيف الكويت الشديد الحرارة. ونجت الحكومة الكويتية من أيدي نظام صدام؛ وتشكلت حكومة المنفى في الطائف. وفي المنفى تولت الحكومة رعاية أبنائها ممن كانوا في الخارج، وذلك بتدبير مستلزمات العيش الخاصة بهم، وتزويد كويتيي الداخل بما يلزم، والضغط على المجتمع الدولي للقيام بدوره المطلوب لردع العدوان. وكان لحكومة المنفى أيضاً دور متميز في جمع أصوات الأصدقاء ليقفوا مع الكويت في مجلس الأمن ليكون التصويت إجماعاً على تأييد الحق الكويتي لاسترجاع سيادته.

أما كويتيو الداخل فقد عاشوا لحظات تتصارع بين الرعب والحلم الجميل؛ صراع الرعب في مواجهة المؤسسة الصدَّامية التي دمَّرت وسلبت واغتصبت كل شيء جميل في الكويت، سواء بإنسانها أم باقتصادها المتنوع أو بيئتها. لكن على الرغم من كل ذلك الرعب كان هناك مجتمع جديد بدأ يتخلق، تناسى فيه الكويتيون الماديات التي عاشوها طويلاً عبر الثراء الذي أسبغه الله عليهم من خلال النفط ليعيشوا فيما بينهم حياة التعاون والإخلاص والمحبة. فرَّ من الكويت الكثير من الجنسيات العربية وغير العربية، ونجا أيضاً من لم يتحمل آلام الاحتلال، وظل الصامدون يصارعون الغزو عبر التراحم والتواصل والعمل التطوعي الخلاق تضمهم في ذلك قضية واحدة: الكويت سترجع حرة من رماد الغزو وهي أبهى وأجمل.

اشتغل الكويتيون في ظل نظام الاحتلال بكل شيء من نظافة شوارع بلدهم وحرق القمامة والعمل سائقين لسيارات الماء وتوزيع المواد الغذائية. ونهضت كل منطقة بمهام العمل المنوطة بها مع تنسيق فيما بينها بين المناطق الأخرى. نسي الكويتيون انتماءاتهم العائلية والطبقية والمذهبية وأصبحوا شخصاً واحداً يذكرهم بمعنى الاسم المشتق لبلادهم الكويت نسبة إلى "الكوت" الذي يعنى الحصن المنيع. رجع كويتيو الداخل بأخلاقهم إلى كويت ما قبل النفط و"تسوروا" بسور العمل والتطوع والحب لأرضهم، وضربوا بذلك أروع الأمثلة لكل أنحاء العالم من خلال عصيانهم المدني (الفهد, 1991؛ الفهد، 1992). فلم يجد النظام الغازي شخصاً واحداً من أبناء الكويت يعمل معه، واجتمعت دول التحالف لتحرر الكويت في السادس والعشرين من شهر فبراير

من العام 1991 متزامناً بذلك مع احتفالات العيد الوطني ليصبح عيد الكويت عيدين: العيد الوطني وعيد التحرير.

وبعد التحرير رجع أهل البلاد ومعهم الوافدون من العرب وغيرهم من الجاليات المتعددة. وأصبح الاعتماد على الآخر سمة للكويتيين. وفرض النظام العالمي الجديد قانونه على العالم، وأصبح الإعلان والإعلام يحاصران الثقافة ويسيّران مسيرتها (حجازي، 1998)، وحل محل الثقافة الرصينة ثقافة الإعلانات الاستهلاكية، وإعلانات شهادة المليون دولار، وبرامج "من سيربح المليون".

أهمية الدراسة:

غيَّر ظهور النفط الكثير من القيم التي كانت سائدة في الكويت؛ لاسيما تلك المرتبطة بالإنتاجية والعمل. كانت أيام ما قبل النفط وأيام الاحتلال بالنسبة للصامدين صورة صادقة للاعتماد على النفس في تحقيق الخير للفرد والجماعة. وقد حلّت كل هذه القيم الإنتاجية فيما بعد قيم استهلاكية تبدأ بمن يقوم بالخدمة داخل البيت مروراً بنظام التعليم المستهلك وانتهاء بصور الاستهلاك في شتى مناحي الحياة.

من هنا كانت التوعية بأهمية الدرس التاريخي الذي سطره الآباء والأجداد مهمة في هذا السياق، ابتداء من فكرة إنشاء المدرسة المباركية والأحمدية، وانتهاء بهذا الكم الكبير من الجمعيات الخيرية والتطوعية التي يجب أن ينوه بجهودها للجيل الحالي؛ لاسيما الطلاب والطالبات وذلك لإعطائهم أمثلة واقعية للاحتذاء بها والخروج من قوقعة الاستهلاك إلى فضاءات الإبداع والإنتاج.

إن أهمية الدراسة تكمن في أنها تحاول أن تغرس مفهوم العمل التطوعي والخيري الذي يؤدى إلى التراحم والتآزر والتسامح بين أبناء المجتمع، وهي القيم التي يصبح المشاركون في هذه الدراسة من خلالها على وعي بأحداث تاريخهم وواقعهم، وبالأحداث العالمية مشكلين بذلك الوعي جسراً رابطاً بين ما هو محلي وما هو إنساني. وتبرز الأهمية الأخرى للدراسة في أنها تنطلق من المدرسة كما بدأت في أوائل القرن الماضي رحلة التعمير. من هنا كان البدء بالمدرسة لإبراز العمل التطوعي وفاءً لذلك الجيل الذي قدح شرارة المعرفة لتصبح هذه الجذوة قبساً يستضئ به الجيل الحالي من أجل خير وطنهم وأنفسهم.

أسئلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة أن تجيب على الأسئلة التالية:-

- ما الذي تستطيع المدرسة أن تقدمه للارتقاء بمفهوم العمل التطوعي عند الطلاب والطالبات؟

- ما أشكال العمل التطوعي التي يمكن أن يقوم بها الطلاب والطالبات؟

- كيف يسهم البحث العلمي في نشر العمل التطوعي بين الطلاب والطالبات على مستوى النظرية والتطبيق؟

عينة الدراسة:

تنطوي عينة الدراسة على أربعة مدارس من التعليم الثانوي العام الحكومي في أربعة مناطق تعليمية. والدراسة إذ تبدأ من التعليم الثانوي إنما تحاول أن تجرب نشر قيم العمل والتطوع عند الطلاب والطالبات وهي القيم التي حظيت بمقرر متكامل في العام الدراسي 2003/2002. مثل هذا المقرر يتناول مواد دستور الكويت ومفاهيم حقوق الإنسان وأهمية العمل التطوعي سيعزز من الأفكار التي ستنطلق منها هذه الدراسة، بحيث تصبح المدارس المشاركة نقطة انطلاق جيدة للإسهام في تطبيق المفاهيم النظرية والخروج بها إلى حيز التطبيق لتمثل مراكز توعية لبقية المدارس في المناطق التعليمية المختلفة.

إجراءات الدراسة ومسار البحث:

تعتمد هذه الدراسة أسلوباً مخالفاً للأساليب الشائعة في مثل هذه الدراسات وهو الأسلوب النوعي Qualitative؛ وهو الأسلوب الذي يتخذ من الميدان سبيلاً ومنهجاً لاختبار الفروض وتحقيقها، واستبصار الآفاق التي تتكشف منها الدراسة والاختبار على أرض الواقع. وتتعذر أهمية المستخدم وإجراءاتها في أهمية الموضوع المراد دراسته. فالعمل التطوعي يرتبط بالفعل المادي وليس بالكلام فقط. وقد يحاضر المحاضر في الموضوع أو يوزع استبانة ليقيس بعض القيم المرتبطة بالتطوع لكنه قد يفاجأ بإجابات هي انعكاس لما في اللاشعور عند النفس البشرية. فالفرد يجيب على عناصر الاستبانة بالإيجاب فيما يخص القيام بنشاطات إيجابية إرضاءً للذات التي نادراً ما تكاشف نفسها وتنقدها النقد البناء. من هنا فإن الأسلوب الميداني يستطيع أن يقيم الحوار في هذه الموضوعات، ويلاحظ الأعمال ويستخرج النتائج، ويقومها تقويماً مباشراً (Morehouse,) Bogdan&Biklen, 1992; Glesne & Peshkin, 1992; Maykut & 1994. ونظراً لصعوبة تطبيق المعايشة الميدانية على مدارس متعددة، فإن الباحث ارتأى أن يختار للتجربة مدرسة واحدة من كل منطقة تعليمية من التعليم العام الحكومي، بحيث تمثل هذه المدارس خريطة الكويت بتنوعها الجغرافي والديموجرافي. وقد تم بعدها مراسلة المناطق التعليمية لتحديد هذه المدارس والتقاء السيدات والسادة مديري المدارس، والحديث معهم عن طبيعة المشروع، والمدة المقترحة للعمل، والأسلوب الإجرائي للتنفيذ، وجدولة العمل في كل مدرسة بتواريخ محددة للالتقاء بالطلبة والطالبات.

في أثناء حواري مع السيدات والسادة مديري المدارس وضحت لهم صعوبة الحوار مع الفصول كلها لعدة أسباب: أهمها عدم وجود مكان يمكن فيه الجمع بين كل هؤلاء، والثاني أهمية التواصل المباشر مع المشاركين. لذلك تم الاتفاق على اختيار عدد يتراوح ما بين 60 و 80

طالباً وطالبة في كل مدرسة، على أن يمثل كل فصل طالب أو طالبة ممن يرتضيهم زملاؤهم لينقلوا إليهم فيما بعد ما تم من حوار. وكانت العينة النموذجية في هذه الحالة هم الفائزين بالانتخابات الحرة في المجالس الطلابية وغيرهم في الأنشطة العامة.

ولا تكتفي هذه الدراسة بالأعداد المشاركة بالحوار؛ لأن جزءاً من أهداف هذه الدراسة أن يقوم المشاركون بتدريب بقية أفراد المدرسة، وذلك كخطوة أولية في ترسيخ معاني العمل التطوعي. وتستمر هذه التجربة خارج أسوار المدرسة؛ ليتم التوعية بأهمية النشاط التطوعي في بقية المدارس في المنطقة نفسها. وهكذا تنتقل الفكرة من المرحلة الثانوية إلى المراحل التعليمية الأخرى بنفس الروح التطوعية، مشكلين بذلك مفهوم كرة الثلج الصغيرة كما هو متبع في إجراءات البحوث الميدانية؛ تلك التي من طبيعتها أن تتنامى فلا تقف عند حد. وترسل هذه المدارس في المنطقة التعليمية الواحدة بمن يمثلها لالتقاء بعدد من ممثلي المدارس الأخرى لطرح النتائج العامة لما قاموا به، وتوثيق ذلك ليكون صورة باقية للأجيال القادمة.

حوار الأفكار :

التقى الباحث بالعينة التي تم اختيارها من قبل الإدارات المدرسية المختلفة، وقسّم العمل مع هذه العينات إلى قسمين. الشكل الأول يتخذ أحدهما من التاريخ ورجالاته وأحداثه مدخلاً للحديث عن العمل التطوعي ومسيرته في الكويت، ويمثل الثاني جانباً تطبيقياً تم تنفيذه من قبل الباحث مع طلابه في جامعة الكويت ضمن مشروع طائر السلام (الجعفر, 2001)، وهو المشروع الذي خاطب من خلاله المجتمع الياباني في شأن قضية الأسرى الكويتيين المحتجزين عند النظام العراقي متخذاً قصة ساداكو وطيور الكركي الألف مدخلا للحوار بين الثقافتين (كور, 2001). وتكمن أهمية هذه القصة - بالإضافة إلى قصة بطلتها ومعاناتها – في العمل التطوعي الذي قام به أصدقاء ساداكو؛ إذ ناشدوا الرأي العام اتخاذ ما يلزم لعمل نصب تذكاري يوضح بشاعة ما تم في حق أطفال هيروشيما، متخذين من رمزية الطائر تجسيداً لمعنى السلام والعيش المشترك (الجعفر, 2001).

بعد هذا الحوار المستند إلى جوانب التاريخ الكويتي والتجربة الواقعية في اليابان، تم طرح سؤال لم يكن متوقعاً من المشاركين في عملية الحوار: وأنتم؟ ماذا صنعتم لوطنكم؟ ماذا فعلتم من أعمال تكون لكم فخراً بين من تحبون في قادم أيامكم؟ كان الوجوم والصدمة من أثر السؤال واضحاً على محيا الطلاب وأتت إجاباتهم بالنفي. هنا بدأ الحوار الذي كشف الكثير عن الطبيعة الغالبة على التعليم في الكويت. ويرى الباحث أن كثيراً من مظاهر أزمة التعليم في الكويت ميله إلى عدم إتاحة الفرص للطاقات الخلاقة عند التلاميذ، فهو أقرب في أساسه إلى طبيعة التعليم البنكي الذي يعتمد مفهوم إيداع المعلومة لا مناقشتها (الجعفر, 2003؛ Freire, 1995). ولقد أضاف الطلاب في أثناء حوارهم إلى ذلك أسلوب الإدارات المدرسية التي كثيراً ما تخذل الطلاب

في الاستماع إلى أفكارهم ومحاولة مناقشتها وتطبيق الصالح منها. ولا شك أن مرجع ذلك لا يعود إلى الإدارة المدرسية وحدها وإنما هو شركة بين كافة المستويات التي تدير العملية التربوية؛ إذا لا يتم تجاوز هذه المشكلات إلا بتعاون وتضافر منها جميعا (وطفة، 1999).

كان حديث الطلاب في حوارهم مليئاً بالشجن. قلت لهم: لنفترض أن الأمور ميسرة لتطبيق أفكاركم، فما الأعمال التي تودون القيام بها؟ كانت أفكار الطلاب تتدفق مطراً في صحراء أحلامهم، وانصَّب معظم حديثهم عن العمل من أجل قضية الأسرى. وكان دور الباحث في الحوار يكمن في مساعدتهم على رؤية جوانب ربما غفلوا عنها، بالإضافة إلى ترتيب المحاور. فأشار عليهم بأهمية البدء بالعمل التطوعي ضمن نطاق البيت المدرسي، لأننا لا يمكننا التحدث عن هذا الموضوع من أجل بناء الآخرين ومساعدتهم ونحن – أي في المدرسة – نحتاج إلى من يبنى فينا روح العطاء والعمل. فاقترح بعضهم أن ننظر في حاجات المدرسة التي تتلخص في التنظيف والتجميل والتخضير.

ولقد أمَّن الباحث على هذه الفكرة النابعة من الطلاب أنفسهم وبيَّن لهم أنها فكرة ترتبط بالمدرسة ومن المهم تنفيذها. لكن ماذا عن العمل التطوعي الذي يمكننا أن نقدمه إلى الحي؟ كان لهذا الجانب المرتبط بالحي نصيب متميز من الأفكار الخلاقة، وتبين أثناء الحوار أن الطلاب يحتاجون إلى من يثير أفكارهم بطريقة قريبة من مقولة جون ديوي عن الحاجة إلى الاستفزاز في مواجهة الطلاب، لأنها في نهاية الأمر تؤدي إلى العمل المبدع والتحدي. وهذا ما فعله الباحث مع محاوريه. بعض الطلاب اقترح بزيارات دورية تقوم بها لجان من المدرسة للاطلاع على أحوال أسر الشهداء والأسرى والحوار معهم في غير أوقات الدراسة. وهناك فكرة تم بالفعل تنفيذها أثناء شهر رمضان المبارك وهي توزيع وجبات الإفطار على عمال النظافة في المنطقة التي يتعلمون بها. مثل هذا العمل الكبير يؤكد أصالة الإدارة المدرسية والشعور النبيل من قبل طالباتها. طالبة أخرى أرادت أن تقتبس فكرة مشروع طائر السلام الذي عرضه الباحث عليهم في حواره معهن ليتم تنفيذه بشكل مغاير؛ عن طريق تحويله إلى مجال الزراعة وسيأتي تفصيل هذه التجربة فيما يلي من هذا البحث.

وهكذا استمرت الأفكار لتنتقل إلى مساحات جغرافية أكبر؛ فمن حيز المدرسة والحي اتسعت دائرة الأفكار لتشمل الكويت بأسرها. وكلما اتسعت الرقعة الجغرافية اتخذت الأفكار بعداً يتسم بالأصالة والإبداع. اقترحت مدرسة بتنظيم مسيرة على شاطئ الخليج يلبس الطلاب المشاركون فيها ما يعبر عن تضامنهم مع المشروع الوطني لمكافحة المخدرات (غراس). واقترحت الطالبات في مدرسة أخرى أن يقمن يوماً رياضياً داخل المدرسة يدعون فيه المدارس الأخرى، وتكون هناك مبالغ رمزية للمشاركة، وتوظف في أعمال خيرية لصالح النفع العام. طلاب آخرون قادهم الحماس إلى اقتراح مخاطبة أعضاء المجلس البلدي لتخصيص مساحة من الأرض لإقامة نصب

تذكاري للشهيد. وقام أحد الطلاب بإجراء عملية حسابية لتكاليف المشروع بحيث يتبرع كل طالب من طلاب الكويت في جميع المراحل – وعددهم أربعمائة ألف طالب وطالبة – بربع دينار. ويبلغ محصلة هذه التبرعات مئة ألف دينار، وهو مبلغ يمكن أن يغطى التكاليف المطلوبة لإنجاز المشروع. وتكمن أهمية هذه الفكرة كونها رمز تقدير وإجلال من طلاب الكويت وطالباتها لمن ضحى من أجل الوطن. ومن ثم يقدر الباحث أهمية هذه الفكرة التي طرحها الطلاب ويرى وجوب العمل على تنفيذها.

وتتابعت الأفكار لتشمل الحلم بأعمال تطوعية تكون هدية من طلاب الكويت وطالباتها إلى أصدقائنا في العالم، وذلك تنويها بالتعاطف مع هذه الشعوب من قبل أبناء الكويت وبناتها. وجاءت فكرة العلبة الغذائية؛ وهي أن يأتي كل طالب وطالبة بعلبة غذاء من أي نوع كان (فول – بزاليا – مشروم ..) بحيث تجمع هذه العلب، وتصنف وتعطى إلى منظمة خيرية مثل جمعية الهلال الأحمر لتباشر توصيلها لمستحقيها. وقد كانت رغبة الطلاب أن تكون الأولوية للمحتاجين من الأشقاء العرب. وزاد الطلاب على هذه الفكرة إشراك المدارس الأخرى بالمنطقة في هذه الحملة، وذلك بإقامة يوم مفتوح يجري فيه تجميع المواد الغذائية من مختلف مدارس المنطقة في مدرسة بعينها، ثم تغلف وترسل للجهة المعنية بالتنفيذ. وأشار طلاب آخرون بأن يكون هناك تبرع مماثل يتزامن مع التبرع الأول، وهو عبارة عن حقيبة مدرسية تشمل الأدوات الأساسية التي يحتاجها كل طالب من دفاتر وأقلام وغيرها. فيتبرع كل طالب بما تيسر من هذه الأدوات ونكون بذلك جمعنا بين زادين: زاد المعدة وزاد العقل.

اتفق الجميع على أن تقوم كل مدرسة بمشروع واحد لكل محور. فالمحور الخاص بالمدرسة تقوم به كل مدرسة؛ سواء أكانت تلك الحاجة تنظيفاً أو صباغة أو زراعة. وكذلك ينطبق الأمر على المحاور الخاصة بالحي والكويت والعالم. واتفقنا أن تكون هناك مشروعات مشتركة بين كل المدارس؛ مثل مشروع الزراعة، والعلبة الغذائية والحقيبة المدرسية، وعمل طيور الكركي الورقية. ويسجل الطلاب انطباعاتهم مكتوبة بعد الانتهاء من كل مرحلة، وتقوم الإدارة بتوثيق كل حدث بالصورة ليكون ضمن أرشيفها. وقد نشط الطلاب إلى وضع أفكارهم موضع التنفيذ والإنجاز على النحو الآتي بيانه.

مشروع الزراعة

تحتفي الإدارات المدرسية في مدارس التعليم العام بالكويت بالزراعة الداخلية، وذلك لسببين: يتعلق أولهما بتجميل المدرسة وإبراز اللمسة الجمالية في مظهرها الداخلي والخارجي. ويرتبط السبب الثاني بالمسابقات التي تنظمها وزارة التربية عبر مناطقها التعليمية لخلق روح التنافس بين المدارس على المستوى الجمالي المتعلق بالزراعة. لذلك لم استغرب ذلك الاحتفاء بالزراعة لدى كل المدارس التي زارها الباحث. لكن تبقى الملاحظة الرئيسة، ففي كل هذه المدارس كان القائم

بفعل الزراعة هو الشخص المكلف بهذا الأمر والذي يتقاضى راتباً في مقابل عمله، وقد يساعده في ذلك عدد من الطلاب والطالبات الملتحقين بالنشاط الزراعي. لذلك كان اتخاذ مشروع الزراعة سبيلا إلى تدعيم العمل التطوعي جزءاً من ذلك الوعي بقيمة الانتماء إلى المدرسة، وهو احساس لا يتحقق إلا بممارسة العمل. وكان لكل مدرسة أسلوبها في التعامل مع هذا الموضوع. ولقد اتفق الباحث مع الإدارات المدرسية على أن يكون على اتصال دائم ومعرفة بتطور الأعمال نظراً لأهمية حضوره في كل خطوة من خطوات العمل، حتى يمكن رصده وتوثيقه ومحاولة فهم بعض دلالاته لدى منفذيه. من بين هذه المدارس الخمس مدرسة احتفت بالزراعة بمعناها البسيط الذي يهدف إلى إحياء أرض موات. لكن هذه الفكرة البسيطة خرجت بقيم تربوية علمية تجلت في كتابات الطالبات بعد الانتهاء من المشروع.

بدأ التنفيذ بتحديد الأرض المراد زراعتها، وتبرعت مدرستان بتقديم الشتْلات والورود. ثم جرى تقسيم الأرض وتخصيص مجموعة من الطالبات لكل قسم منها. ولم يشأ الطالبات أن يبدأن بالعمل قبل دراسة مسبقة للمظهر الجمالي الذي ينبغي أن تكون عليه الأرض بعد تمام المشروع ومن ثم تدارسن أنواع الشتلات والورود وكيفية توزيعها وتنسيقها. وهكذا تم تحويل الأرض الموات إلى ساحة جميلة في أقل من ساعتين. وكان من بين ما سجلته الطالبات عن هذه البادرة أنها خلقت لديهن وعياً بيئياً بكويت جميلة، ونمت في نفوسهن حب التطوع والمشاركة في العمل من أجل المدرسة.

لكن بعض المدارس – مدرسة المطوعة شريفة العمر – حملت مشروع الزراعة إلى معان رمزية ذات أبعاد تتجاوز البعد الجمالي؛ تستحق تجربة هذه المدرسة الوقوف عندها بشيء من التفصيل لتكون نموذجاً لغيرها من المدارس. أثناء الحوار مع طالبات المدرسة لرصد أفكارهن في شأن العمل التطوعي، اقترحت إحدى الطالبات أن نقوم بزراعة 605 وردة من الورود الصفر يحيط بها ألف شتلة خضراء، وذلك بعد أن رأت فكرة الطيور التي قام بها الباحث مع طلابه وكانت وسيلة إلى مخاطبة شعب اليابان في شأن قضية الأسرى والمحتجزين. لاقت هذه الفكرة استحسان كل الطالبات المشاركات. وحملت الفكرة إلى السيدة مديرة المدرسة التي تبنت هذا الموضوع بحماس شديد. وقد أشار الباحث عليها بمخاطبة إدارة الجمعية التعاونية في المنطقة للإسهام في تغطية تكلفة شراء هذه الشتلات والورود ولاسيما أن العدد الذي سنقوم بزراعته كبير إلى حد ما، وسيكلف مبلغاً مالياً لا نريد أن يشكل عبئاً على الطالبات أو الإدارة المدرسية. كما أن الإسهام فيما يحقق الأفضل لأبناء المنطقة وبناتها هو جزء من الواجبات التي تضطلع بها الجمعية التعاونية في المنطقة. استحسنت السيدة مديرة المدرسة الفكرة وأرسلت خطاباً بهذا الشأن إلى مجلس إدارة الجمعية غير أن المجلس بحكم العمل البيروقراطي تأخر في الرد. كانت الفكرة لا تزال متوقدة، ولم يفتر حماس الطالبات والإدارة المدرسية لها، فارتأت السيدة المديرة بأن تتحمل

الإدارة المصاريف اللازمة ومحاسبة الجمعية التعاونية فيما بعد إذا وافقت، وإلا فإن المبلغ المصروف سيكون من ضمن الأعمال التي خصصت لخدمة المدرسة وكان هذا تصرفاً محموداً من المديرة. كلفت الإدارة الشخص المسؤول عن الزراعة في المدرسة بشراء الشتلات المطلوبة ، وبالفعل حُدّد اليوم الذي ستقوم المدرسة كلها بالزراعة بمشاركة الجميع ومن بينهن الإدارة والمدرسات.

كان يوماً مشمساً بعد أيام من المطر الجميل الذي أنعم به الله على الكويت، مما جعل التربة مشبعة بماء الحياة تنتظر دورها في الإسهام بالعطاء. جرى توزيع الطالبات بحسب المراحل التعليمية: كل مرحلة تزرع طرفاً من أطراف المدرسة. كان الباحث شريكاً للطلبة في كل مرحلة من هذه المراحل بالزراعة، كما قام بطرح بعض الأسئلة عليهن متصل بدلالة الرقم المزروع، وأهمية العمل المطروح، وماذا استفدن من هذه التجربة؟ وكان يستمع إلى إجاباتهن وطلب إليهن أيضاً توثيق ذلك بالكتابة. وتمت الزراعة في شهر رمضان المبارك فبارك الله بالوقت وبالأفكار والجهود. كانت الانطباعات التي كتبها الطالبات عن مشروع الزراعة موافقة للكثير من القيم التي خرج بها الباحث من الحوار الذي أجراه معهن. وكان الفرق بين النتيجتين أن الانطباعات الأولى كانت خارجة عن الحوار الذي تم بالمشافهة، أما الثانية فكان الانطباع نتيجة للقيام بفعل هن مشاركات فيه، فكانت نبرة الصدق واضحة حتى في التعبيرات اللغوية التي جرت بها أقلامهن.

القيم المستخلصة من مشروع الزراعة في مدرسة شريفة العمر المشتركة:

لعل أهم نقطة في المشروع الزراعي الذي تم في المدرسة هو دلالة الرقم المستخدم في الزراعة ونوعية الزرع. فهناك 605 وردة من الورود الصفر ترمز إلى عدد الأسرى الكويتيين، وألف شتلة خضراء رمزاً للحياة. هذا يعنى أن الطالبات وهن يزرعن هذه الزهور والشتلات إنما يضعن في مخيلتهن رمزية العدد واستذكار الموضوع. وليس من غريب المصادفة أن تأتي جل الانطباعات المكتوبة بعبارات من مثل (الشعور بـ، تذكرت) بالإضافة إلى عناصر التشبيه المتداخلة مع فعل الشعور والتذكر: (تذكر الأسرى بالورود). إن انطباعات الطالبات المكتوبة وضحت القيم التي خرجن بها من المشروع، وهي قيم تدور حول أهمية العمل التطوعي للمدرسة والحي والوطن والعالم؛ بحيث يشكل الطالبات العاملات بالمشروع نقطة المركز في هذه الأعمال، ولعل في الشكل التالي توضيحاً لهذه الفكرة:

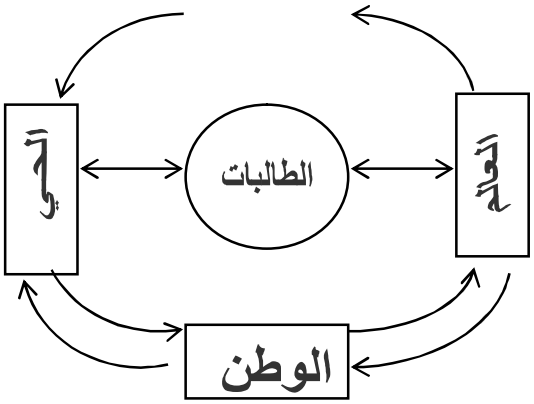

يوضح هذا الرسم صورة العلاقة التي خرجت بها انطباعات الطالبات عن المشروع الذي قمن به، وكيف أنهن بالعمل الذي تم حققن التكامل بين العناصر الأربعة:

- **المدرسة:**

فعلى مستوى المدرسة أكدت الطالبات حبهن لمدرستهن، وذلك بإخراجها بصورة جديدة وجميلة. ولم تكتف الطالبات بالزراعة بل حاولن أيضاً وضع أسمائهن على كل شتلة أو وردة زرعنها بأنفسهن ليؤكدن مبدأ الانتماء للمكان الذي ضمهن في سنوات طلبهن للعلم، وأسهم في توعيتهن بقضايا عصرهن.

- **الحي:**

أما المستوى الخاص بالمنطقة فهو إشعار المواطنين – لاسيما أهالي الشهداء والأسرى – بأنهن يذكرن الأحداث، وهن في عملهن الزراعي المرتبط بقيمة دلالية إنما يسهمن في تأكيدهن لهذه الفكرة بطريقتهن الخاصة.

- **الوطن:**

وتندمج فكرة تجميل المدرسة لتكون نموذجاً لمدارس الكويت وذلك أن عنايتهن بقضية الأسرى هي عناية بقضايا الكويت. وهكذا يتسع المفهوم من معناه المحدود جغرافياً بمنطقة تحتل طرفاً قصياً من أطراف الوطن لتشمل بالفكرة أرجاء الكويت كلها.

العالم:

إن الحديث عن الموضوع والكتابة عنه عن طريق البريد الإلكتروني وتوضيح المعاني المرتبطة بالأرقام وشكل العمل والوسيلة السلمية المستخدمة في التعبير عن قضايا الوطن، كل ذلك يجعل العالم يحترم الطريقة الحضارية التي لجأ إليها بنات مدرسة المطوعة شريفة في التعامل مع قضية الأسرى.

وقد بدأت هذه النقاط الأربع من الفعل الذي قامت به الطالبات ليشكل صورة حوارية للعلاقة بين هذه الأطراف، وهي علاقة عميقة تصوغ وعي الطالبات في قراءتهن للكلمة وللعالم في آن.

تبقى هناك القيم المتعلقة بالطالبات أنفسهن: كالشعور بالسعادة أثناء العمل، والوحدة والتماسك والتعاون والإحساس بقيمة الذات وأهمية الاعتناء بما تم زراعته، لأن في هذا الاهتمام انعكاساً للاهتمام بالقضية، ولأن في تعاون الجميع واتحادهم صورة رمزية لتعاون الجميع من أهل الكويت في العمل من أجل الأسرى، لعله يسارع في حل قضيتهم، وينضاف إلى ذلك رمزية الورد والزرع بوصفهما نموذجاً للحياة، وعلاقة ذلك بالأسْر والاعتقال. ففي هذا الطرح خطاب جديد في التعامل مع قضية الأسرى. وهو خطاب بديل للبكائيات بطرح حالة مغايرة، وتعطى معاني الحياة والأمل. فالورد والخضرة رمزان للحب والحياة وارتباط ذلك بقضية الأسرى إنما هو احتفاء بهؤلاء الأسرى الذين أعطونا هم والشهداء الذين رووا بدمائهم أرض بلادهم معنى جديداً للحياة. وتثبيت هذه الشتلات وغرسها بالأرض إنما يغرسون روح المقاومة بهذه الطريقة فتلامس جذور الشتلات تراب الوطن، وتمتد في كل مكان ليصبح أبناء الكويت وبناتها كلهم على استعداد لافتداء وطنهم والعيش بنضارة الورد وباخضرار العشب. وهم بزراعتهم هذه الورود في المدرسة ووضع أسمائهم على كل شتلة إنما يذكرون أنفسهم وكل زائر للمدرسة وكل من يلتحق بها في المستقبل للدراسة بهذه القضية الحيوية.

إن العمل الذي قامت به " مدرسة المطوعة شريفة العمر " إنما هو نموذج من الأعمال التطوعية التي يجب أن تعمم في مدارس الكويت، ولا بأس أن تجتهد كل مدرسة في إبداع طرق أخرى للتعبير. والمهم هو أن ينطوي الفعل التطوعي على قيمة دلالية تحمل معانيها معها مستويات متعددة من التأويل ليضفي العمل عليها صفة الاستمرار والتجدد.

وطن واحد هو الإنسان: مشروع العلبة الغذائية

إن الرخاء المادي الذي أسبغه الله سبحانه وتعالى على الكويت لاسيما بعد ظهور النفط جعل ولاة الأمر يستخدمون هذه النعمة لخير مواطنيها وذلك بإقرار مجانية الخدمات الأساسية كالتعليم والصحة، كما أنهم أسهموا في مساعدة الدول الصديقة من خلال صناديق التعاون والتضامن. هذه التسهيلات التي اعتادها أبناء الكويت كان لها أثرها في إضعاف روح التفاعل مع قضايا الأمم الأخرى وذلك لاضطلاع الحكومة عنهم بهذا الدور الإنساني. ولا شك أن هذا الأمر ينطوي على جانب سلبي في شخصية الإنسان الكويتي لأنها تجعل منه مجرد مستهلك غير معتاد على التفكير والإنتاج، سواء بالإسهام في قضايا وطنه أو في قضايا العالم المحيط به.

إن في الكويت – على الرغم من تمتع مواطنوها من رخاء ملحوظ – كثيراً من الأسر المحتاجة؛ كما أن الفضائيات تعرض علينا يومياً نماذج من القهر والجوع الذي يتفشى في المجتمعات الإنسانية. غير أننا من النادر أن نجد عبر أجهزة الإعلام ما يعبر عن التفاعل

الشعبي مع هذه المآسي الإنسانية (باربر, 1998). ويظهر عدم التفاعل واضحاً على وجه الخصوص في الشريحة الطلابية التي تمثل نسبة مهمة من عدد السكان في الكويت.

وإذا حاولنا التماس أسباب هذه الظاهرة يكون المنهج الدراسي واحداً من الأسباب لعدم توفيره المادة العلمية المناسبة لتحقيق مشاركة الطلاب في مثل هذه الأحداث الإنسانية. وقد يكون من بين الأسباب دور الإدارة المدرسية التي تركز جهودها على العملية التحصيلية للطلاب واعتبار هذه الأمور من القضايا السياسية التي ليس للطلاب أن ينشغلوا بها. من هنا كانت فكرة العلبة الغذائية بداية لمشروع حاول أن يطلق بذرة الخير التي ظلت سجينة التراب لترعاها عناصر الحياة الأخرى من شمس وهواء وماء.

الفكرة في أساسها تطمح إلى أن يأتي كل طالب وطالبة في المدارس المشاركة على سبيل التبرع بعلبة غذائية أو أكثر، على أن تكون هذه المواد من مال الطالب نفسه. ولا بأس أن يستأذن من الأهل في بعض الفائض من الطعام على أن يخبرهم بالهدف من المشروع. ولكي يؤتي هذا العمل ثماراً لا بد من دور فاعل للإدارة المدرسية؛ وذلك لتحفيز المشاركين لإبرازه إلى حيز الوجود. وهذا هو بالفعل ما تم. فقد وزعت بعض المدارس نشرة على الطالبات ليطلع عليها أولياء الأمور تضمنت العزم على القيام بحملة تبرعات غذائية، ومناشدة الأسرة تشجيع الأبناء على مثل هذا العمل الإنساني. وناشدت مدرسة أخرى مديري المدارس المجاورة المشاركة في هذا المشروع، وأضافت الإدارة إرسال الوفود الطلابية إلى هذه المدارس، والحديث إلى الجموع الطلابية عبر الإذاعة المدرسية وذلك للتنويه بالعمل والتشجيع على المشاركة. وقد استجاب لهذا النداء تسع مدارس، وأرسلت هذه المدارس وفودا حملت تبرعات طلابها إلى مدرسة ثانوية فاطمة الهاشمية التي انطلقت منها هذه الدعوة الإنسانية.

إن وقفة مع هذا العمل ضرورية في هذا المقام لأنها لخصت الكثير من أهداف الدراسة؛ فالفكرة بدأت مع مجموعة قليلة من الطالبات وبعض الإداريين ، الذين نقلوها بدورهم إلى عموم طالبات المدرسة. ثم اتسعت لتشمل المدارس المجاورة. وتجلت قيمة هذه المشاركة في الإحساس بالفخر بما قدمه كل فريق من المشاركين، وتعارف طالبات كل مدرسة مع طالبات المدارس الأخرى. وكان المدرسة المضيفة على درجة عالية من حسن الضيافة، فكتابات الترحيب بهذه الجموع، والتنسيق في تضييف الجموع بالماء والشاي والقهوة أكَّد روح المحبة. ولعل البسمة الرائعة التي أضاءت الوجوه في ذلك اليوم جعلت يوم التطوع يوم عرس كما وصفته إحدى المدرسات. لقد كان الأمر كذلك. وحينما غادرت الوفود ، بقيت مجموعة من الطالبات لتصنيف الأغذية على حسب النوع ووضعها في الصناديق المخصصة لها. وكانت النتيجة رائعة. فقد امتلأت شاحنة جمعية الهلال الأحمر عن آخرها بمواد المدارس المشاركة، مما أثلج الصدر

وجعل الباحث يتساءل: لو أن مدارس الكويت كلها شاركت بمثل هذه المشاريع الإنسانية. ترى ما يكون شكل النتائج؟

إن زرع البسمة تجلى بشكل آخر في ثانوية الفنطاس، لاسيما في شهر رمضان المبارك وذلك من خلال فريق التطوع الذي شكلته المدرسة. واتخذت جهود الإدارة صوراً متعددة تركز في معظمها على الجانب المحلي. فهناك زيارات لدور الرعاية الاجتماعية للتخفيف من معاناة كبار السن، وزيارة لبنك الدم لتقديم التبرع، وزيارة للأسر المحتاجة في المنطقة والتخفيف عنها.

إن زيارة طالبات ثانوية الفنطاس هذه الأسر لمعاينة ظروفها على أرض الواقع جعل الأمر مختلفاً عند هؤلاء الطالبات، وجعلتهن على علاقة حميمة بالواقع الذي يحيط بهذه الأسر. وبرز في أذهانهن كثير من التساؤلات: لماذا تحيط مثل هذه الظروف بهذه الأسر؟ وماذا نستطيع أن نصنع للتخفيف عنها؟ فهذه التجربة جديدة على هؤلاء الطالبات، فلم تقع أنظارهن من قبل على أسر تجمع الخبز اليابس لتبيعه لأصحاب الماشية، وهن لم يشهدن من قبل أسرة مكونة من خمس فتيات وأب مريض عاجز وأم تصارع واقعها المؤلم من أجل توفير الضروريات لبناتها وزوجها. مثل هذه القصص الواقعية كان فيها ما يشبه الصدمة العلاجية لهؤلاء الفتيات تدعوهن إلى تغيير أسلوب الحياة ونمط التفكير الذي اعتدنه؛ إلى البحث عن مخرج من الأزمات التي تعانيها هذه الأسر. فطالبة حكت ما رأته لشقيقها لعله يتمكن من إيجاد وظيفة للأم، وأخرى كلمت أباها لعله يستطيع بنفوذه رفع المعاناة عن هذه الأسر. إن هذه الزيارات التي قامت بها طالبات ثانوية الفنطاس بجهود خاصة مع إداريي المدرسة كان لها أصداؤها. فقد نشأت حملة أخرى لمساندة هذه الأسر في مناسبة العيد، وتوفير ما يتطلبه العيد من احتياجات. بالإضافة إلى زيارة قسم الأطفال بمستشفى الأحمدى وتوزيع الهدايا ومشاركة الأطفال في لهوهم البريء.

لقد أوجدت هذه المشروعات التي قامت بها المدارس المشاركة تواصلاً إنسانياً جميلاً كسر الحدود الجغرافية بين أبناء الوطن الواحد؛ فلا فرق بين مواطن ومواطن، ولا وجود يميز بين مناطق داخل حدود العاصمة وأخرى خارجها، كما امتد التواصل ليشمل أطرافاً أخرى من العالم ليصبح الوجود وطناً واحداً محوره الإنسان.

قراءة الكلمة ... قراءة العالم: مشروع الحقيبة المدرسية

يأتي القرآن بمعجزته الكبرى بأولى آياته مخاطباً سيد الكون وسيد الوجود محمد (صلى الله عليه وسلم) "اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم" (العلق 1-5). إن فعل القراءة في هذه الآيات تحريض للعقل لكي يتدبر ويتأمل فلا سبيل لتحصيل المعرفة إلا بفعل القراءة.

أما قراءة الكلمة – في معناها التربوي – فإنها لا تعني التعرف إلى أبجدية الحروف بقدر ما تعني الوعي بدلالاتها وسياقاتها المعرفية؛ لأن التعليم في مفهومه الحقيقي إنما يطمح إلى تنشئة طلبة على وعي نقدي بمشكلات المجتمع والعالم، وتنمية التفكير الابتكاري الذي يربط الأحداث ضمن سياقاتها المتعددة، وفتح الآفاق أمام الأسئلة ليستنتج الطالب من الإجابات ما ينفعه في قراءة المستقبل. هكذا يصبح الطالب في هذه الحالة نقطة ضوء، وكلما تقدم في قراءة الكلمة تكشف له الغامض مما يحيط من أسئلة الواقع. وهي الأسئلة التي تعري أسباب الحروب والجهل والظلم والجوع، وتدعو إلى السلام والمحبة والعدل وغيرها. وبمثل هذا النوع من القراءة يصبح الطالب ضميراً يحيا في وسط الحدث، وجزءاً من نبضاته الخفاقة الممتدة في القارات الخمس.

من هنا جاء مشروع الحقيبة المدرسية متمما ومتوازيا مع مشروع العلبة الغذائية؛ لأن الإنسان جسد وروح. فقد ارتأى الطلاب والطالبات المشاركون في المشروع أن نتمم مشروع العلبة الغذائية بمشروع الحقيبة المدرسية، وحجتهم في ذلك أن الكثير من الأسر تجهز أبناءها للعام الدراسي بما يفيض عن حاجاتهم مما يجعلهم يسيئون استخدام هذه الأدوات. ومن هنا، جاء الاقتراح بأن يأتي كل طالب وطالبة بما هو زائد عن حاجته، على أن يتم التبرع به إلى الأطفال المحتاجين في قرى العالم النائية أو البلدان التي نكبتها الحروب فدمرت الآلة الحربية بنيتها التحتية. وبذلك يأتي دور الحقيبة المدرسية وسيطاً رمزياً باستبدال الغنى الروحي بالفقر والمعرفة بالجهل والسلام بالدمار.

وقد كان تجاوب المشاركين متميزاً وشارك الكثير منهم بالمال. ونظراً لحساسية تدخل المال في العمل التطوعي لاسيما في مثل هذه الدراسة فقد ارتأى الباحث وبالاتفاق مع المشاركين أن نشتري بقيمة المال المجموع أدوات مدرسية ينتفع بها الأطفال المحتاجون. وقد تطوعت إحدى المدرسات بشراء هذه المواد، وتم جلبها وشحنها مع المواد الغذائية في سيارة الهلال الأحمر الكويتي.

حينما يصبح التطوع سياسة: الانطلاق من سجن المربع إلى فضاء الحرية

إن قضية الأسرى من الموضوعات المهمة التي أدلى الطلاب والطالبات بأفكارهم من أجل الإسهام فيها بعمل يتخذ بعداً إعلامياً ودولياً، ويكون مختلفاً عن الخطاب السياسي السائد الذي أهمل موضوع الأسرى بعد تحرير العراق من نظامه السابق. لقد آمن هؤلاء الطلاب بأن استخدام الإعلام بشكل جيد وابتكاري سيكون له إسهام فاعل في تسليط الضوء على هذه القضية. وقد ذكر الطلاب المشروع الذي قام به الباحث مع طلابه ليحاور به التجربة اليابانية في قضية السلام والأسرى. كان إسهام الباحث في موضوع الأسرى في أغسطس 2000 في مدينة هيروشيما هو بداية للتعرف على آلام الشعوب الأخرى عن قرب، وكيف تحول طائر من الورق من رمز ياباني إلى رمز دولي يحتفي بالسلام والعيش المشترك، ويندد بالحرب ومجرميها. لقد

طرح الباحث على الطلاب المشاركين في مشروع العمل التطوعي هذا السؤال: ماذا لو أنجزنا مشروعاً نختتم به العمل التطوعي، بحيث نحاول أن نجعل منه حدثاً ثقافياً كويتياً ودولياً؟ وأشار الباحث في حديثه إلى الوضع السياسي الراهن والمرتبط بالصراع العربي الإسرائيلي لاسيما أحداث القدس وبما يحدث في العراق من دمار وقتل والحرب الأخيرة في لبنان. هنا طرأت فكرة عمل اثنين وعشرين ألف طائر ورقي على شكل الكركي يمثل كل ألف طائر دولة عربية. ونظراً لأن التجربة مقامة في خمس مدارس فإن إشراكهم بهذا العمل يكون مفيداً من أكثر من زاوية: الأول التعرف إلى شكل جديد من أشكال الخطاب الإبداعي ينطوي على قيمة سياسية وإنسانية. والثاني التعرف إلى ثقافة شعوب أخرى كاليابان. والثالث الاشتراك في عمل يدوي ذي قيمة تربوية مهمة.

هكذا بدأ الباحث بشراء الورق اللازم وتعمد أن يكون ذا مواصفات معينة؛ كأن يكون قوياً لحد ما، لأن استخدام ورق على درجة من القوة في صناعة الطائر يتطلب شيئاً من الجهد العضلي وعلى ذلك فكل طائر تعطي طاقة العمل من جهد صانعه. بالإضافة إلى اختيار ألوان متعددة لهذا الورق كرمز للتعددية بين هذه الدول وبين أبنائها وطوائفها ومستوياتها الاجتماعية والاقتصادية وغيرها يوحدهم في ذلك اللغة والهدف والمصير. وتم قص هذا الورق على شكل مربع ليكون جاهزاً للتنفيذ.

قام الباحث في البداية بعمليات تدريب مكثفة لمجموعة من الطلاب والطالبات وبعض المدرسات، وتطوع هؤلاء بدورهم بتدريب المجاميع الكبيرة كلٌّ في مدرسته. وقد كان حماس الطلبة والطالبات رائعاً لعمل هذه الطيور التي ترمز للسلام والمحبة والحرية. ولعل دروس التعارف والتعلم والصبر والتركيز والدقة والمتعة كانت متجلية في هذا العمل.

في عصر أحد الأيام، اتصل بالباحث أحد الطلبة قائلاً" لقد أنهيت أكثر من خمسمائة طائر" كان صوته فَرِحا ومملوءاً بالثقة. طلبت لقاءه. لم يكن صاحبي من الوجوه المألوفة التي رأيتها في ثانوية أحمد البشر الرومي. كان أحد هؤلاء الصامتين الذين يعملون بدون ضجة وبصمت مصحوب بالفرح الداخلي لقيمة العطاء. شكرت صاحبي. قال لي: لقد جعلتني استثمر وقتي في شيء ذي قيمة. وطلب مني المزيد من الورق ليتمم الألف طائر. ترى ما أمنية فهد...؟

وفي ثانوية فاطمة الهاشمية، تجمعت الطالبات من مدارس متعددة حول مدرساتهن أو زميلاتهن ممن أتقن صنع الطائر ليشاركن في هذه العملية. لكن من بين هذه الجموع البشرية كانت هناك طاولة أخذت على عاتقها تجميع الورق الذي أخفق أصحابه في عمل الطائر وإعادة تصنيعه. كان الإصرار واضحاً باستخدام كل ورقة لعمل المزيد من الطيور الورقية. قلت في نفسي: لم يدر هؤلاء الأحبة بأنهن في إعادة التصنيع لهذا الورق إنما يحافظن على شجرة في

مكان ما، وهن يحافظن من ثم على عش لطائر ربما يكون طائرهن المعرض للانقراض: الكركي.

لم يقف مشروع الطائر عند حدود المدارس التي شاركت، بل خرج ليحتفل مع الكويتيين بعيد الكويت الوطني وعيد التحرير. فقد قام طلابي بجامعة الكويت بنصب طاولتهم في ساحة العلم, وتحلق حولهم العديد من الجموع يريدون تعلم صنع الطائر والمشاركة في المشروع. وقد شارك في هذا العمل الأعمار المختلفة من سن الرياض إلى الشيخوخة. حتى إن كبار السن كانوا يتحدون الشباب بعمل نماذج من السفن الورقية لا يستطيع هذا الجيل أن يتنكرها. فتمت عملية مبادلة وحوار ثقافي وإبداعي بين جيلين: جيل خبير بصنع السفينة، يبحر في ذاكرته ليؤكد أصالة الوطن الإبداعية، وجيل يسهم بالطيران إلى رحابة العالم. ذاكرتان التقتا لتحققا شعار الكويت: السفينة والطائر.

حوراء وساداكو:

بعد الانتهاء من الحوار الذي تم مع الطلاب والطالبات في المدارس المختلفة، كنت أهم بالخروج من القاعة في إحدى المدارس وإذا بصوت يناديني: هل بالإمكان أن أتحدث معك؟ كان صوتها الخجل ينم عن موضوع مكبوت تود البوح به. قالت لي: هل تعرف مدى فرحي بالاستماع إليك اليوم؟ قلت لها لم كل ذلك؟ أجابت: إن قصة ساداكو تكاد تكون شبيهه بقصتي مع مرض اللوكيميا، فأنا أيضاً مصابة بهذا المرض منذ سنوات ولا أزال أعالج. سألتها عن دراستها وقالت بأنها تأثرت قليلاً لكن إصرارها وبتعاون الإدارة المدرسية التي تفهمت ظروفها بدأت تخطو نحو النجاح بخطوات حثيثة ومبشرة لأنه بالإصرار والعزيمة يستطيع الإنسان أن يعمل المستحيل. كانت تريد أن تسمع المزيد عن قصة ساداكو وكنت أود أن أعرف المزيد عن نضالها ومعاناتها التي كانت جسراً لنجاحها. طلبت منها أن تكتب قصتها لأنها نموذج مثير لبقية الطالبات لاسيما ممن لهن ظروف مشابهة بشرط أن تستأذن أهلها في ذلك لأنها قد توظف في دراسات مستقبلية. لكن الأهل رفضوا على الرغم من محاولات الإدارة المدرسية بإقناعهم. المهم أن حوراء كانت بطلة في المشروع التطوعي الذي تم في مدرستها. كنت ألاحظ اهتمامها بالأعمال التي أنجزتها مدرستها، وكيف تحث صديقاتها للقيام بدورهن. كانت حوراء امتداداً لساداكو الغائبة فحلت هي مكانها لبث رسالة العمل الإنساني الذي يحتضن الجميع. كانت حوراء بقصتها وانتصارها وحماسها كما كتبت في انطباعاتها عن الندوة – وأنا اقتبس ذلك لأعبر به عن المشروع – "كزهرة هبت على الجميع بعطرها".

النتائج التوصيات:

كشفت اللقاءات التي تمت بين الباحث والطلاب والطالبات في المدارس المختارة الكثير عما يجول في خواطرهم من أفكار تجاه قضايا وطنهم وقضايا العالم وقضايا تتناول واقع مدارسهم؛

سواء المرتبط بطرائق التدريس، أو المنهج المقرر، أو الإدارة المدرسية. مثل هذه القضايا برزت في كتاباتهم التي ضمنوها انطباعاتهم عن هذه المشاركات التي تمت والتي يودون رؤيتها على أرض واقعهم التعليمي.

من أبرز هذه القضايا هو استخدام أسلوب الحوار الذي تم بين الباحث وبينهم أو كما تصفه إحداهن بأن المحاضر "تحدث إلينا كقريبات أو كأخوات له". مثل هذه النقطة وتحديدها من قبل العديد من الطلاب والطالبات تنطوي في المقابل على عدم شيوع استخدام هذا الأسلوب في مقاعد الدراسة لأن في تحديد الأشياء من قبل الطلاب دلالة على غرابة الشيء (Ellsworth, 1997; Harountunian-Godon, 1991; Witherll&Nodding, 1991). ولو شاع استخدام أسلوب الحوار في التدريس واتخذت العلاقة بعداً إنسانياً لا هرمياً بين الأستاذ والطالب لما كان ذا دلالة نقدية في هذا المقام. يضاف إلى ذلك أن الحوار ربط المشاركين بواقعهم والحديث عنه. وفي هذا رسالة واضحة إلى مؤلفي المناهج والمعلمين في طرق تدريسهم بأن يطرحوا قضايا ذات علاقة بهموم الطلاب والمجتمع بحيث يسهم الطلبة في مناقشتها، والحوار حولها، ومحاولة الخروج بحلول.

نقطة أخرى أشار إليها المشاركون في انطباعاتهم وهي أن المشروعات التي تم النقاش حولها لتكون برنامجاً مشتركاً بين الطلاب والطالبات والإدارة والباحث كانت تصدر في المقام الأول من الطلاب والطالبات أنفسهم. هذا يعنى أن المعرفة المراد دراستها والنقاش حولها ستكون من بنات أفكارهم؛ مما أعطى درجات اهتمام أكبر عند الدارسين؛ لأنها ليست مفروضة عليهم. بل إن الموضوعات التي اقترحها الباحث ما كانت لتظهر لولا روح التجاوب التي أظهرها الطلاب والطالبات.

لكن مما زاد من قيمة المشروعات أنها انطوت على أبعاد رمزية. فالرمز لا يقف عند المعنى الحقيقي بل يتجاوزه لتكون قراءة الأبعاد متجددة ومستمرة بتجدد القراء. فاختيار رقم 605 في الزراعة ارتبط بعدد الأسرى الستمائة والخمسة، وأصبحت الألف الأخرى مثل تعويذة حب لهؤلاء الأسرى بأن يرجعوا إلى أهاليهم سالمين. وهو لا يكتفي بذلك بل يربط بين هذه القضية الإنسانية الخاصة بشعب الكويت وبين قضية أخرى مرتبطة بشعب آخر هو الشعب الياباني ومعاناته مع القنبلة الذرية ورمزية طائر الكركي الذي يرمز إلى طول الحياة. هذه الرمزية استخدمها الباحث عن عمد في اختياره لنوع الورق والألوان والعدد المطلوب في مشروع عمل طائر الكركي. فالوحدة العربية لا يعني أن نكون متشابهين بقدر ما تعني أن نكون متحاورين. فالألوان في اختلافها سر جمالها حينما تتحد، وهكذا هي همومنا العربية التي توجب على القوي والكبير احترام جاره الصغير وتقبل حقوقه وسيادته على حدوده.

مثل هذا الكم الهائل من الأفكار التي طرحها الجميع أثناء الحوار أبرز نقطة مهمة وهي أهمية تحديد الأهداف والعمل بها. فالكلام عبارة عن مساحة صوتية تختفي باللحظة التي ينتهي منها المتكلم. ومن هنا فإن تحويل هذا الكلام إلى واقع ملموس والعمل به هو نوع من التزواج بين الكلمة والفعل. والطلاب أثناء الحوار تحدثوا عن الشخصيات التي طالما سمعوا عن إنجازاتها أثناء الغزو والتي بقيت أعمالهم في مخيلة هؤلاء الطلاب. هذا يعنى أن العمل في هذه الحالة يدور في دائرة تبدأ بالكلمة التي هي في الأساس مجموعة من الأفكار، ثم تتحول هذه الأفكار إلى أفعال لتصبح هذه الأفعال ذكرى ومثلاً تِلهج بذكره الركبان.

ومن أجل أن يكون هذا الكلام عملاً فإن هناك أدوات لا بد أن يتمتع بها هذا المبادر وهي التحمل والصبر والمثابرة. فالطلاب أشادوا بموقف الطفلة اليابانية وصبرها وإنجازاتها في كم الطيور التي عملتها ، والدقة والإتقان التي حاولت أن تصبو إليه، لكن الإشادة الأكبر كانت من أجل أصدقائها الذين استمروا في نشر قضية صديقتهم أكثر من سنتين، فجمعوا المال الكافي لبناء النصب التذكاري. هذا العمل الجاد ذكره الطلاب أيضاً في موقف الصامدين الذين جعلوا من التكافل الاجتماعي وصبرهم على إهانات الغازي تاجاً توجت نتائجه بالانتصار.

إن الطلاب المشاركين في هذا الحوار هم من صفوف شتى ومن مستويات تعليمية مختلفة فوحد العمل التطوعي الذي يصبو إلى ترسيخ فعل الخير في طبيعتهم، وأحيا فيما بينهم المشاعر الوطنية تجاه القضايا السياسية والمجتمعية المرتبطة بهم. فمثل هذه القضايا كانت دائماً بمعزل عنهم في ظل الوضع الاستهلاكي المحيط بهم من كل الجوانب. وكأن هذه الوحدة التي تمت على مستوى الفعل ما كانت إلا نتيجة لتحديد الأهداف والمشروعات منذ البداية، ومناقشة ذلك فيما بينهم، وتقسيم أنواع العمل كل حسب طاقاته الإبداعية، لا فرق في ذلك بين ذكر وأنثى، أو المناطق التعليمية التي بها يدرسون، أو الجذور التاريخية التي إليها ينتمون. بل كان الجميع يعمل وهو يشعر بإمكانية تقديم شيء يستفيد منه الطرفان المتعلم والمجتمع. هذه الاستفادة تجلت بمعرفة تاريخهم وتاريخ شعوب أخرى بالإضافة إلى التعاون والتعارف الذي تم على المستوى الشخصي فيما بينهم.

هذه الانطباعات التي أسلفنا بيانها والتي جاءت نتيجة للحوار الذي تم بين الباحث والطلاب اتخذت بعداً آخر يتجاوز المستوى الشخصي. فقد نشأت أفكار تركز على المستوى المجتمعي خارج حدود المدرسة، وأراد الطلاب تحقيق المشاركة بين جميع المدارس في المناطق التعليمية المختلفة. وكان من بين هذه الأفكار قيام الطلاب والطالبات كلٌّ في مجاله بتشكيل وفود يتألف كل منها من فردين لزيارة مدارس المنطقة التعليمية. وقد تم تنسيق هذه الزيارة بحيث تكون في يوم محدد يتسنى فيه للطلاب والطالبات التعرف إلى ما تم بشأن المشروعات المشتركة عبر الإذاعة المدرسية، ومن ثم أتاح ذلك لهم إبداع طرق أخرى للإسهام في إنجاز المشروع الذي

يقومون به. إن الطلاب وهو يقومون بطرح مثل هذه الفكرة إنما يقومون بعملية تبرع وهو تبرع متميز، لأنه يتعامل بالأفكار ومحاولة إشراك الآخرين بهذه المأدبة الفكرية التي ستنجز فعلاً يخلد ذكراهم كطلاب، ولاسيما أن هذه الأفكار تتجاوز حدود المكان الجغرافي المرتبط بالكويت إلى بلاد أخرى عبر المساعدات الغذائية والتعليمية التي يصبون إلى تقديمها. هذه الأفكار اتخذت بعداً تكنولوجياً حينما اقترح بعض الطلاب والطالبات إنشاء صفحة للإنترنت في كل مدرسة تبرز فيه هذه الجوانب؛ لاسيما أن معظم مدارس دولة الكويت لها صفحات على الإنترنت مرتبطة بصفحة الوزارة. بل إن الأمر تعدى ذلك إلى مطالبة الطلاب بإرسال رسائل إلكترونية إلى من يعرفون خارج البلاد للتعريف بما يقومون به ومطالبة الآخرين بالإسهام بأفكار محددة في هذه المشروعات.

خاتمة:

إن هذه الصور التطوعية من الميدان التربوي إنما هي انعكاس لبذرة الخير الموجودة داخل نفوس المشاركين، والتي نمت وترعرعت شيئاً فشيئاً بعد أن ارتوت بالحوار والمشاركة والتنفيذ لتطلق طائرها الأسير فيهم إلى سماء أرحب. هذه الصور التطوعية بعطاءاتها المتميزة واللامحدودة هي أشبه بالورقة المربعة التي صنعنا منها طائر الكركي في مشروعنا الأخير.

فلكي نقوم بصنع هذا الطائر لا بد من المرور بأكثر من عشرين خطوة، لكي نحرر أنفسنا من سجن المربع ونصبح طيوراً حرة. لكن هذه الحرية مرهونة بالكثير من العطاءات. فهذا المربع الذي هو نقطة البداية يصبح مثلثين، ثم أربعا، فستا، فثمان، ثم يطوى فيصبح مربعاً أصغر لكن ينطوي في داخله مثلثات لا متناهية ترمز إلى تنوع العطاء. ويستمر هذا العطاء والتواضع. فحينما تطوى من جهة اليمين لا بد أن تقابله بعطاء مماثل لجهة اليسار، والأمر كذلك في حالة الطي للأمام والخلف. فالعطاء لا يعرف يمينيا ولا يساريا، و لا يفرق بين بلد متقدم أو متخلف، ما دامت هذه العطاءات تحاول أن تحرر هذا الإنسان من قيود الجهل والفقر والعبودية لنصبح جميعنا أحراراً في دنيانا في ظل عالم يعيش فيه الإنسان قيم الحق والخير والجمال.

المراجع

أولا: المراجع العربية:

باربر، بنجامين. (1998). عالم ماك: المواجهة بين التأقلم والعولمة. ترجمة أحمد محمود. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة – المشروع القومي للترجمة.

الجعفر، علي عاشور. (2004). الطبيعة الحوارية. **مجلة البيان**, العدد 404, رابطة الأدباء في الكويت.

الجعفر ، علي عاشور. (2003) . الأسلوب الحواري السردي ودوره في تحقيق التكامل المنهجي : نموذج تطبيقي في موضوع الغزو العراقي **. المجلة التربوية** . العدد 69, (18), 157-184. الكويت.

الجعفر ، علي عاشور. (2001). طائر السلام : حوارية الذات والآخر ، **المجلة العربية للعلوم الإنسانية** . العدد 75 ، (19), 85 – 116 . الكويت.

الحاتم ، عبد الله. (1980 ط2). من هنا بدأت الكويت . الكويت : دار القبس.

حجازي، مصطفى. (1998). حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والدعوة الأصولية. بيروت: المركز الثقافي العربي.

الرشيد ، عبد العزيز. (د.ت). تاريخ الكويت .(وضع حواشيه وأشرف على تنسيقه يعقوب عبد العزيز الرشيد) . بيروت : دار مكتبة الحياة .

الرومي ، أحمد البشر ؛ صفوت كمال . (1984). الأمثال الكويتية المقارنه (4 أجزاء) الكويت : وزارة الإعلام .

الشملان ، سيف مرزوق . (1985). فرحان بن فهد الخالد .الكويت . دار السلاسل .

الفهد ، سليمان .(1991). شاهد على زمان الاحتلال العراقي في الكويت (الجزء الأول) القاهرة : مكتبة مدبولي .

الفهد ، سليمان .(1992). شاهد على زمان الاحتلال العراقي في الكويت (الجزء الثاني) بيروت : أصدقاء الحرف .

القناعي ، يوسف بن عيسى . (1954،ط2). صفحات من تاريخ الكويت . دمشق : دار المنار .

كور, إلينور. (2001)**. طيور الكركي الورقية الألف**. ترجمة د. زبيدة علي أشكناني. مراجعة وتقديم د. علي عاشور الجعفر. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

النوري ، عبد الله . (1988). خالدون في تاريخ الكويت . الكويت : ذات السلاسل .

النوري ، عبد الله . (1980 ط2). حكايات من الكويت . الكويت : دار القلم .

وطفة ، علي أسعد . (1999). بنية السلطة وإشكالية التسلط التربوي في الوطن العربي. بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية .

ثانيا: المراجع الأجنبية

Al-Jafar, Ali. (1998). **Not like now: The dialogic narrative in the educational act**. Unpublished dissertation. Indiana University-Bloomington .

Bogdan, Robert C, & Sari Knopp Biklen. (1992). **Qualitative research for education: An introduction to theory and methods**. Boston:Allyn & Bacon

Ellsworth, Elizabeth. (1997). **Teaching positions: Difference, pedagogy, and the power of address.** New York: Teachers College Press.

Freire, P. (c1975, 1995**). Pedagogy of the oppressed**. New York: Continum Publishing Company.

Glesne, Corrine, & Alan Peshkin. (1992). **Becoming qualitative researcher: An introduction**. New York: Longman.

Haroutunian-Gordon, Sophie. (1991). **Turning the soul: Teaching through conversation in the high school.** Chicago: The University of Chicago Press.

Maykut, Pamela; &Richard Morehouse. (1994). **Beginning qualitative research: A philosophic and practical guide**. London: The Falmer Press.

Witherell, Caroll; & Nel Nodding (eds). (1991). **Stories lives tell: Narrative and dialogue in education**. New York: Teachers College Press.